ألوكارد

ما يبقى من الليل

رواية



رضا الحكيم الشعيري

ألوكارد

ما يبقى من الليل

رواية

رضا الحكيم الشعيري

الإهداء

إلى أهل الرباط، على وجه الخصوص،

إلى من يمنحون مدينتهم وجهها الإنساني، في البيوت والأزقة، وفي التحية العابرة، وفي المكان الذي يفسحونه للآخرين.

إليكم هذه الحكاية، بما فيها من خوف ومحبة، ومن أناس يحاولون أن يصونوا ما بقي لهم، وأن يتركوا لمن يأتي بعدهم حياة أرحب.

ولكل من جعل غريباً يشعر أن له مكاناً، لعل باباً في هذه الصفحات يفتح على شيء من كرمه.

المقدمة

تبدأ بعض الحكايات بما ينقص صاحبها. قوة لا يملكها، أو اسم يضيق به، أو سؤال كلما طرحه وجد من يطلب منه الانتظار. وقد يمضي وقت طويل قبل أن يدرك أن ما أخفاه الآخرون عنه كان يحدد مكانه بينهم، وأن حياته التي ظنها صغيرة تقع في قلب حكاية أكبر.

في هذه الرواية، يحمل ألوكارد عمره كما يحمل الناس أغراضهم في رحلة طويلة: يحفظ شيئاً بعناية، ويفقد شيئاً آخر، وينسى أين وضع ما يحتاج إليه في اللحظة نفسها. أردت أن يبقى قريباً من هذا الارتباك البشري، حتى حين تأخذه الحكاية إلى ما يتجاوز أعمار البشر. فالسنوات الكثيرة لا تمنح صاحبها جواباً جاهزاً، وقد تزيد ثقل سؤال بسيط: كيف نحمي من نحب من غير أن نختار حياتهم بالنيابة عنهم؟

تجري الأحداث في عالم متخيل، له قصباته ومدنه وعهوده القديمة، وتصل إليه أصوات من الحياة المغربية: عمل الحرفيين، وحركة الأسواق، وقلق البيوت على الغائبين، والألفة التي تتكون حول مائدة أو في ورشة. في هذا العالم يعيش مصاصو الدماء والمستذئبون إلى جوار

أناس يحتاجون إلى أجرة ودواء وطريق آمن للعودة. وما يحدث في القصور يبلغ هؤلاء أيضاً، ولو جاءهم في صورة باب مغلق أو اسم اختفى من دفتر.

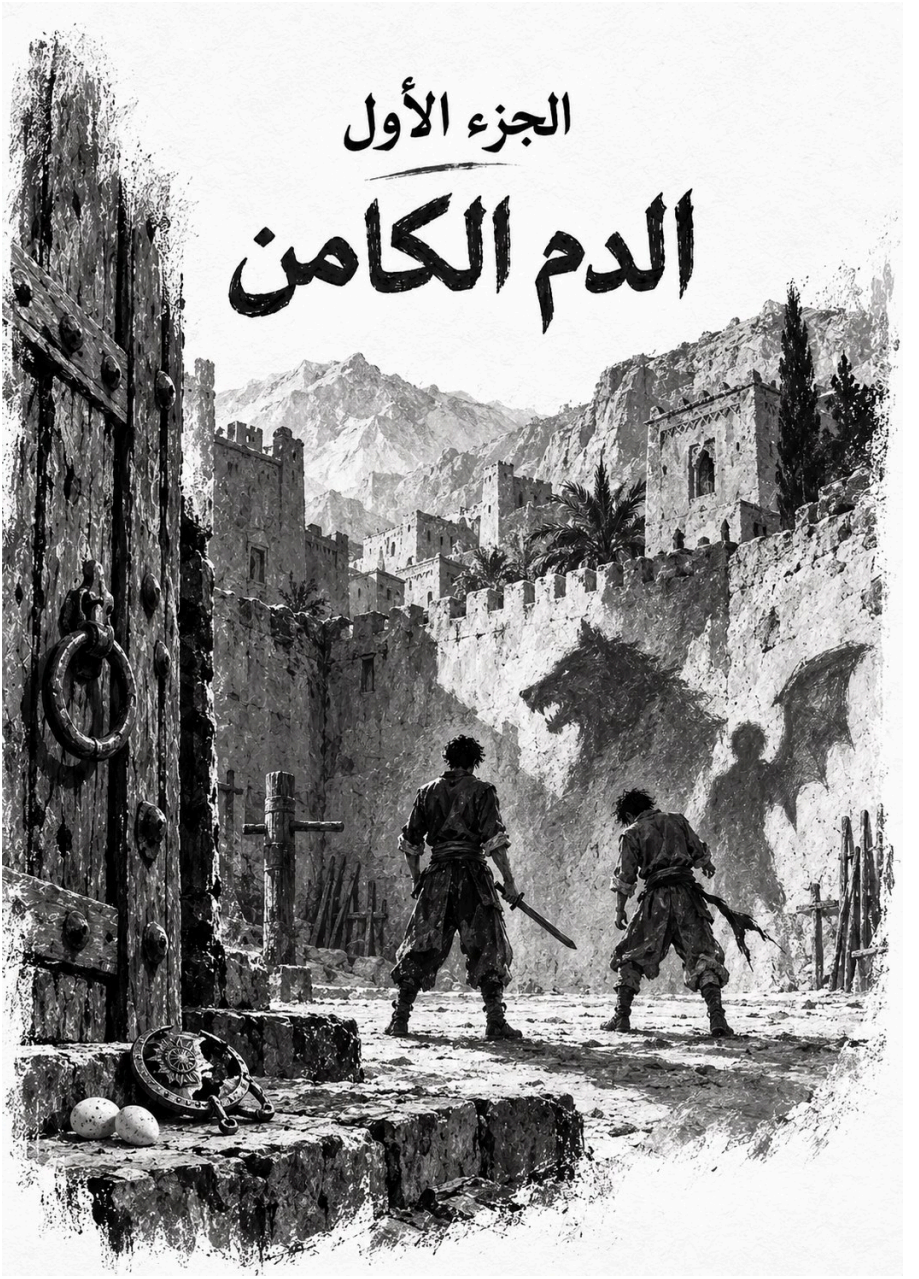
تسأل الحكاية عمّا يفعله الخوف بالحب، وما تفعله السلطة بمن يظن أنه يستطيع استعمالها ثم إعادتها إلى موضعها. وتترك لشخصياتها أن تختلف وتخطئ، وأن تجد أحياناً في عمل صغير ما تعجز عنه الوعود الكبيرة. لذلك تبدو الأشياء العادية مهمة هنا: أداة يحملها صاحبها إلى العمل، وقطعة قماش يحتفظ بها أحدهم، ويد تمتد في الوقت المناسب.

أترك للقارئ أن يتعرف إلى هذه الوجوه، وأن يقترب منها بالقدر الذي تسمح به الحكاية. لكل منها ما يعرفه عن نفسه، وما سيكتشفه حين يضطر إلى الاختيار.

رضا الحكيم الشعيري

الجزء الأول

الدم الكامن



الفصل الأول

الأضعف

في الصباح الذي كسر فيه أخوه أنفه، كان ألوكارد قد سرق له بيضتين من المطبخ.

لفّهما في خرقة وأدخلهما في ثنية عباءته، ثم أمضى وقتاً يبحث عن حزامه، قبل أن يجده معلّقاً على مسمار في الإسطبل. لم يتذكر لماذا تركه هناك. كان يريد أن يسبق وارث إلى باب الساحة؛ أخوه لا يأكل قبل التدريب، ويعود منه جائعاً إلى حد يجعله يقتسم طعام الآخرين قبل أن يسألهم إن كانوا قد انتهوا. لكن قاسماً لمح ألوكارد يعبر الممر فأشار إليه بعصاه. حاول أن يتظاهر بأنه لم يرَ الإشارة، فسمع اسمه بصوت جعل الحصان القريب يرفع رأسه.

كانت ساحة القصبة رطبة من مطر الليل. عند الجدار وقف خمسة فتيان، أصغرهم يافع في السادسة عشرة، ظهرت على ذراعيه قبل أيام خشونة التحول الأول. رفعوا رؤوسهم حين دخل ابن الحاكم، ونظر أحدهم إلى حذائه؛ كان رباطه يجر وراءه. انحنى ألوكارد ليعقده،

فسقطت من كمه قطعة خشب صغيرة احتفظ بها لإصلاح نافذته. دحرجها بقدمه إلى الحائط، ثم خلع العباءة بعناية ووضعها فوق حجر.

في الحادية والعشرين، لم يعد قادراً على تصديق أن تأخر قوته أمر عادي. كان قد سمع ذلك حتى ملّه: بعض الأجساد تحتاج إلى وقت، وبعض أبناء البيوت الكبرى يتأخرون ثم يسبقون الجميع. كبر الفتيان الذين قالوا الكلام من أجلهم، وبدأوا يصعدون إلى الغابة في ليالي البدر، بينما بقي هو ينتظر شيئاً لا يحدث. جرح في إصبعه يظل أسبوعاً، والبرد يوقظه، وإذا انطفأ المصباح لم يستطع تمييز الأثاث في العتمة، فتعثر به؛ أما حليمة فكانت تصرّ على أن الثياب التي يتركها على الأرض هي ما يوقعه.

وقف وارث في وسط الساحة يشد رباط ساعده. كان أكبر منه بأربع سنوات، عريض المنكبين، وفي وجهه أثر نوم قصير. لمح الانتفاخ في العباءة، فابتسم لأخيه، ثم أخفى ابتسامته عندما أمر قاسم كليهما برفع السلاح. تناول ألوكارد السيف الخشبي ونفض عنه الطين. اقترب وارث بما يكفي ليذكّره بألّا يتراجع في خط مستقيم، فأجابه أنه لم ينسَ منذ الأمس. لم يكن يريد النصيحة أمام الفتيان، ووارث يعرف ذلك، لكنه لم يتعلم كيف يكف عنها.

بدأ النزال ببطء أغضبه أكثر مما أراحه. رأى كتف أخيه تسبق الضربة، والقدم تتأخر حتى تسمح له بالابتعاد. صاح قاسم يأمر وارث بالقتال، فاشتدت الحركات قليلاً. كان ألوكارد قد تمرن ليلاً بعصا مكنسة، يكرر حركة يلاحظها في أخيه: يثقل على قدمه اليمنى قبل الهجوم. انتظرها، وانزلق إلى الجانب، ولمس أضلاعه بطرف السيف. رأى الرضا في عيني وارث، واستقام من غير أن يستطيع منع ابتسامته.

قال أحد الواقفين إنهم يستطيعون جميعاً أن ينتصروا إذا تباطأ خصومهم هكذا. اندفع ألوكارد مرة ثانية قبل أن ينهي الفتى ضحكته، يريد ضربة لا يملك أحد أن يشكك فيها. دخل قريباً من أخيه، وتلقى قبضة في وجهه أعادته إلى ركبتيه. لم يرَ اليد؛ رأى وجه وارث فجأة فوقه، ثم الأرض، ثم قطرات دم تقع على الطين. أبعد الذراع التي امتدت لمساعدته ونهض وحده. كان الألم محتملاً حتى سمع قاسماً يقول إن الحاكم كان محقاً في تجنيبه المسير.

جمع عباءته وغادر قبل أن يسمع البقية. عند باب المطبخ، اكتشف أن إحدى البيضتين انكسرت. نزع القشر عن الصفار المهروس ولف الخرقة من جديد، كأن إخفاءها سيصلح شيئاً. أجلسته حليمة قرب الفرن، وأمسكت وجهه بين كفيها، ثم أعادت أنفه إلى موضعه بحركة سريعة جعلته يسب. قالت إنه يستطيع شتمها بعد أن يتوقف عن تلطيخ

أرضها، وناولته القماش. لم تسأله من ضربه. كانت تعرف الساحة وما تفعله بالأولاد الذين يأتون منها.

دخل وارث يحمل البيضة السليمة. جلس على مقعد قصير وفرك الدم اليابس عن يده. قال إنه لم يقصد وجهه، وإن ألوكارد يعرف أن الاقتراب بهذه الطريقة يجعله عرضة للقبضة. وحين لم يجبه، أضاف: «أصبتني مرة وكان يكفي. ثم سمعت ضحكة فنسيت كل ما تعرفه. لا أستطيع تدريبك إذا كنت تقاتل الواقفين حولنا أيضاً.»

أبعد ألوكارد القماش عن فمه. «أنت تخرج من الساحة حين ينتهي التدريب. أما أنا فيحملونها معي إلى الطعام، وإلى الإسطبل، وإلى مجلس أبي. كل واحد يجد شيئاً يذكّرني به. حتى الصغير الذي لا يستطيع شد حزامه ينظر إليّ كأنه ينتظر أن يكبر كي يصير حارسي.» كان في صوته تعب لم يرده، فخفض عينيه إلى يديه. لم يكن يريد أن يشفق وارث عليه؛ أراده فقط أن يجلس قليلاً من دون أن يشرح له ما أخطأ فيه.

قشّر وارث البيضة وقسمها، ووضع النصف الأكبر أمامه. بقيت حليمة تعمل قريباً منهما وتتظاهر بأنها لا تسمع. وبعد صمت، قال وارث إنه سيتحدث إلى أبيهما عن المسير المقبل. هز ألوكارد رأسه؛ لا يريد أن يطلب له الإذن، بل أن يكف عن الوقوف إلى جانب أبيه

حين يمنعه. ابتلع وارث نصيبه قبل أن يجيبه: «إذا خرجتَ، فلن أستطيع أن أبقى قربك طوال الوقت. يجب أن تعرف ذلك قبل أن توافق.»

في الخارج، ارتفعت أصوات العمال وهم ينزلون أخشاباً من عربة. طلبت حليمة من ألوكارد إيصال سجل الدقيق إلى المخزن قبل أن يضيع منها بين يديه. أخذ السجل بامتعاض مصطنع، ثم عاد بعد لحظات ليسأل أين وضعته. وجده وارث تحت عباءته، فضحك رغم محاولته التماسك. ضحك ألوكارد معه، فآلمه أنفه، وازداد ضحك أخيه حتى رمت حليمة نحوهما قشرة بصلة وطردتهما من المطبخ.

كانت تازرون ترتفع على كتف صخري فوق وادٍ تشقه ساقية قديمة. حول القصبة بيوت للحرس والصناع، ثم سوق تتجمع فيه قوافل الزيت والصوف قبل الصعود إلى الجبل. حكم أبوهم، رافع، الممرات الغربية باسم العشائر التي بايعته. يدفع التجار رسماً مقابل الحماية، ويقولون إن رجال تازرون يستطيعون شم نار أُطفئت قبل يومين. عاش البشر في ظل السور منذ أجيال، يعرفون سادتهم ويتركون لهم الجبل في ليالي اكتمال القمر. أما داخل السوق، فكانت الحياة تجري بما تحتاجه الحياة: امرأة تساوم على الملح، وحمار يرفض الحركة، وصبي يركض وراء رغيف سقط من سلته.

أحب ألوكارد النزول إلى هناك لأنه يستطيع أن يبقى ساعة كاملة من غير أن يُطلب منه إظهار مخالبه. كان عمّار، صانع السروج، يعهد إليه بأعمال صغيرة ثم يعيد بعضها بعد انصرافه. عرف ألوكارد ذلك من الثقوب التي تختفي في اليوم التالي، لكنه يفضّل هذا الرفق على رفق الساحة. في ظهيرة ذلك اليوم، وجد يونس ابن عمّار يقف فوق صندوق ليرفع مصراع الدكان. أمسك ألوكارد طرفه وساعده، ثم نسي سجل الدقيق على الرف وهو يجرّب إصلاح إبزيم مكسور.

دخل رجل من جباة القصبة وفي يده ورقة رسوم جديدة. لم يكن من العشيرة، لكنه تعلم كيف يستعير نبرتها. طالب عمّار بمال إضافي لحماية القوافل من الاعتداءات في الممر الشمالي. أجابه الصانع بأنه دفع، فأشار الرجل إلى ختم ثانٍ لا يشمله ما دفعه. ظل عمّار هادئاً، غير أن ألوكارد رأى يده ترتجف فوق الجلد، ورأى يونس يعود ببطء إلى زاوية الدكان.

طلب الورقة، فناولها الجابي له بعدما عرفه. كانت الرسوم مفروضة على العربات التجارية العابرة، وعمّار لا يملك عربة ولا يغادر السوق إلا ماشياً. أشار إلى العبارة، فاعتذر الرجل عن الالتباس، وأخذ يستعيد الورقة. أمسكها ألوكارد لحظة أطول، وسأله عن الدكاكين الأخرى التي جمع منها المال. تغير وجه الجابي، وقال إن هذا شأن صاحب